

القدوة الحسنة

د. عبد الرازق درغام أبوشعشع عيسى

كلية أصول - الجامعة الأسمرية الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد فإن الإسلام دين الله تعالى الذي يدعو إلى الاعتدال والوسطية في جميع جوانب الحياة عقيدة وشريعة ونظاماً وسلوكاً وأخلاقاً، وجاءت نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة مؤكدة ذلك. قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾⁽¹⁾.

وهذا منهج النبي ﷺ في دعوته إلى العبادة والتدين المعتدل فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ " خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يَمَلَّ حَتَّى تَمَلُّوا وَكَانَ يُقُولُ أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ وَإِنْ قَلَّ"⁽²⁾.

وأباح الله عز وجل للإنسان طيبات الحياة الدنيا من الطعام والشراب والملبس والمنكح، وطلب الانتفاع بما لکن دون إسراف، ولكن بعض الناس يغلب عليهم فكراً وسلوكياً ونفسياً جانب فيميلون إليه، ويغفلون عن بقية الجوانب، ويظنون أحياناً أنهم يحسنون صنعاً، فيقعون في الإفراط أو التفریط، ويتجهون إلى المغالاة والتعصب المذموم، أو إلى التقيصير والضياع مع التسامح المرفوض.

والأمة الإسلامية اليوم بأمس الحاجة إلى أصحاب القدوة الحسنة، للرجوع إلى التدين المعتدل البعيد عن الإفراط أو التفریط؛ لأن بهم بناء الجيل، وهدى الطريق، ومنار السبيل - بعد الله عز وجل - في ظل انتشار الإفراط والتفریط عند كثير ممن حُسبوا علي الإسلام، ويظنون أنهم علي صواب، وأن غيرهم علي خطأ فانحرف بعضهم عن الإسلام نتيجة للغلو الذي وقع فيه، وضيع البعض الآخر نفسه بسبب بعده عن تعاليم الإسلام.

1- سورة القصص الآية: 77.

2- رواه مسلم في صحيحه ك الصيام ب صيام النبي في غير رمضان واستحباب أن لا يخلي شهرا عن صوم ح 1958.

والدين الإسلامي لم ينظر إلى الإنسان على أنه روح فحسب، وانحال عليه بالعظاات التي تجعله يركن إلى الأرض، ويزهد بالدنيا وما فيه، ولا على أنه جسد يجرى وراء لوازم استمرار بقائه فيتحول إلى حيوان، بل نظر إليه على أنه جسد وروح، وأقام تلك المعادلة الصعبة والحساسة بين الروح والجسد، وبنى العلاقة بينهما على أساس يخدم الفرد في هذه الدنيا الفانية، ويسعد في الآخرة الباقية⁽¹⁾.

وسار صحابة النبي ﷺ علي نجهه فكان كل واحد منهم ﷺ يحاول أن يمثّل أوامر الله، وهدى نبيه ويجعل منهما المقياس الدقيق في حياته قولاً وعملاً، إيماناً وسلوكاً فما وافقهما أنفذه وألزم به نفسه، وما خالفهما أقصاه ونهى عنه، فلم يخضع أحدهم لحظة لمقاييس الدنيا وشهواتها، ولا لمتطلبات النفس ورغباتها، بل كانت الآخرة هدفهم، وإرضاء الله ورسوله غايتهم، فاستقاموا على الطريق المثلى كما أمر الله وأوصى نبيه⁽²⁾.

ولذا كان المنهج الإلهي - في إصلاح البشرية وهدايتها إلى طريق الحق - مُعتمداً على وجود القدوة التي تحوّل تعاليم ومبادئ الشريعة إلى سلوك عملي، وحقيقة واقعة أمام البشر جميعاً؛ بعيداً عن الإفراط والتفريط، فكان رسول الله ﷺ هو القدوة التي تترجم المنهج الإسلامي إلى حقيقة وواقع عملي، قال - تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁽³⁾ ولما سُئِلَتْ أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - عن خلقه - ﷺ - قالت: " كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ " ⁽⁴⁾.

ولقد عاش رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام - رضي الله عنهم - عاملين بمنهج الوحي على أفضل وجه وأعدله، وقدموا لنا صورة مثالية فريدة في تنفيذ منهج الله بتوازنه واعتداله ووسطيته، وشموله وواقعيته وكماله.

وبذلك نالوا شرف خيرية هذه الأمة قال رسول الله - ﷺ - " خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم " ⁽⁵⁾، إلا أنه قد وقعت بعض المواقف الفردية المعدودة من بعض الصحابة - رضي الله عنهم - تشير إلى الاتجاه إلى سبيل الغلو، والتشدد في الدين عن حرص صادق للازدياد من الخير، ولكن الرسول

1- الإسلام دين القدوة / حسن إسماعيل مروة، ص 17 / 18.

2- المرجع السابق ص 71.

3- سورة الأحزاب الآية: 21.

4- رواه أحمد في مسنده ح 24601.

5- رواه البخاري في صحيحه، ك فضائل أصحاب النبي - ﷺ - ب فضل أصحاب النبي - ﷺ - ح (2600).

الكريم والمربي العظيم ﷺ كان له بالمرصاد، فردهم عن هذا السبيل، وقوم هذا العوج، وصحح نظريتهم، وأرشدهم إلى سبيل الاعتدال والخير القويم، فاستجابوا وأطاعوا، كل ذلك كان بأسلوب حكيم⁽¹⁾.
وأوصاهم بالاعتدال في التدين حتى لا يمل المسلم من العبادة والذكر، فيعيش محققاً التوازن بين الروح والجسد، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّجَةِ"⁽²⁾.

وسوف يدور البحث حول المباحث الآتية:

تمهيد: مفهوم القدوة الحسنة.

المبحث الأول: شروط القدوة الحسنة وأهميتها.

المبحث الثاني: آثار القدوة الحسنة.

المبحث الثالث: آثار القدوة السيئة.

(تمهيد)

مفهوم القدوة الحسنة:

لعل من نافلة القول قبل البدء في ثنايا الموضوع أن أعرج علي تعريف القدوة الحسنة؛ حتى يتضح مفهومها.

القدوة في اللغة: اسم لمن يقتدي به إذا فعل مثل فعله تأسياً، فلان قدوة أي يقتدي به، ويقال إن القدوة الأصل الذي يتشعب منه الفروع⁽³⁾.

وفي الاصطلاح: هو الشخص المرئي الذي يدعو إلى أنواع الفضائل والكمالات السلوكية، ولأفكار المسلمين الصحيحة، وقد عمل بها واتصف بها من قبل⁽⁴⁾.

أوهي الاقتداء بأهل الخير والفضل والصلاح في كل ما يتعلق بمعالى الأمور وفضائلها، من القوة والحق والعدل.

1- ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث: محمد عبد الحكيم حامد. 81.

2- رواه البخاري في صحيحه: ك بدء الوحي ب: الدين يسر ح 39.

3- المصباح المنير - مادة قدوة.

4- أساليب الدعوة التربوية في السنة النبوية / زياد محمود العاني - ص 327

والأسوة أو القدوة نوعان: أسوة حسنة وأسوة سيئة، فالأسوة الحسنة الأسوة بالرسول ﷺ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁽¹⁾.
وأما الأسوة بغيره إذا خالفه فهي أسوة سيئة، كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسي بهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾⁽²⁾.

ولقد حاز رسول الله ﷺ فضائل الخير كله، حتى غدا قرآناً يمشى على الأرض، ولم يكن رسول الله ﷺ لينجح في ذلك لو اقتصر على التحلي بأخلاق القرآن دون المشاركة الوجدانية للمجتمع التي تجعله يعيش حياة الناس ليشعر بشعورهم ويتفاعل مع آرائهم وحياتهم، ويتداخل في تقاليدهم وشؤونهم كافة بصدق وفهم مع الجميع لا تفرقة عنده في ذلك بين غنى وفقر، أو رفيع ووضيع⁽³⁾.

المبحث الأول: شروط القدوة الحسنة وأهميتها

أولاً: شروط القدوة الحسنة:

ليس كل إنسان يصلح أن يكون قدوة حسنة - وإن زعم ذلك - بل لابد أن تتوفر فيه شروطاً هامة حتى يكون مثلاً أعلى لغيره ويحقق التدين المعتدل البعيد عن الإفراط والتفريط، ومن أهم هذه الشروط ما يأتي:

1. اقتران القول بالعمل

إذا أراد المسلم أن يكون قدوة حسنة فلا بد من التطابق بين الإيمان والعمل، فلا يأمر بشيء إلا إذا طبقه علي نفسه حتى يحقق تأثيره، حتى إذا رأى المؤمنون فعله صدّقه، وأخذوا بأوامره، كما لا بد أن ينتهي عما ينتهي عنه من شر أو منكر، أو سوء أو خبث أو بذاءة، فإذا لم يلحظ المنتهون ذلك، أو رأوا عكسه وخلافه؛ عابوها وانتقصوا من قدرها، وسخروا منها.

ولو راجعنا قصص أصحاب القدوة الصالحة لرأينا هذا الشرط واضحاً في سلوكهم، فقد كانوا لا يأمرون بشيء حتى يسبقوا الناس إلى العمل به، ولا ينهاون عن شيء إلا ويسبقون الناس أيضاً بالامتناع عنه. " أي أنه يدعو إلى المبادئ والفضائل والواجبات بعمله وأخلاقه، وأن يكون كل ما دعا

1- سورة الأحزاب الآية: 21.

2- سورة الزخرف الآية: 22.

3- أساليب الدعوة التربوية في السنة النبوية / زياد محمود العاني ص 33.

إليه قد حققه بسيرته وعمل به في حياته الشخصية والعائلية والاجتماعية، فأصبحت أعماله مثلاً عالياً للناس يتأسون بها⁽¹⁾.

وصاحب القدوة الصالحة يقول خيراً ويعمل خيراً، فلا تجد تناقضاً بين منطقته وسلوكه، ولذلك كان الأنبياء - عليهم السلام - والأولياء قدوة صالحة؛ لأننا نجد انسجاماً واضحاً بين ما يقولون وبين ما يجسّدون من تلك الأقوال، وهذا ما دعا القرآن الكريم إلى اعتبار أن التناقض بين القول والفعل أمراً ممقوتاً عند الله: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾⁽²⁾.

وها هو أبو الأسود الدؤلي يوجه العتاب واللوم إلى صاحب القدوة السيئة، الذي يسعى لإصلاح غيره دون إصلاح نفسه فيقول:

يا أيها الرجل المعلم غيره	**	هلا لنفسك كان ذا التعليم
نصف الدواء لذي السقام وذو الضنى	**	كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانتهت عن غيرها	**	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدي	**	بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأني مثله	**	عار عليك إذا فعلت عظيم ⁽³⁾ .

"وقد شكوا الناس في القديم والحديث من دعاة يحسنون القول ويسئون الفعل، والواقع أن شكوى الناس من هؤلاء يجب أن تسبقها شكوى الأديان والمذاهب منهم؛ لأن تناقض فعلهم وقولهم أخطر شغب يمس قضايا الإيمان، ويصيبها في الصميم⁽⁴⁾.

ولأن الخطر لا يقتصر على المتدين وعلى دينه فحسب؛ بل يتعدى إلى كل من يقتدي به، فليحتاط المتدين لهذا الأمر المهم، ويراقب أفعاله وأقواله، وليُري الله تعالى من نفسه خيراً.

ويصف الإمام ابن القيم حال هؤلاء الذين صدوا الناس عن الحق بأفعالهم فجذبوهم إلى النار فقال: "علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم،

1- الرسالة المحمدية - سليمان الندوي ص 68.

2- سورة الصف: الآيتان: 3/2.

3- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، ص 277.

4- مع الله: دراسات في الدعوة. محمد الغزالي، ص 234.

فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم. فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق⁽¹⁾.

وهذا أمر مشاهد ومعلوم في حياة الناس، فكم من عالم صد عن سبيل الله بفعله وخلقه، وإنما أفسد الناس اثنان: جاهل متنسك، وعالم فاجر. فالأول يدعو الناس إلى جهله وبدعه وتحاريفه ويغريهم بنسكه، والثاني ينفر الناس ويبعدهم عن العلم والحق بفسقه وفجوره، وكأنهم يقولون: لو كان في علمه خير لعمل به وانتفع.

وأول آفة تصيب الإسلام في مقتل الداعية المخالف فعله لقوله، تخيل أن هذا الداعية في بلد لا يدين كثير من أهلها بالإسلام، وهو قدوة سيئة فكيف يكون حاله؟ إنه يبعد الناس عن الإسلام، وينفرهم منه؛ لأنهم لم يقرأوا عن الإسلام وإنما رأوا هذا الخطيب السيئ الخلق، ولسان حالهم يقول هذا هو الإسلام الذي يدعو إليه، هل الإسلام أمره بالتدخين مثلاً أو الخوض في أعراض الناس. فبدل أن يدخل الناس إلى الإسلام بفعله، ينفرهم منه.

2- الثبات على المبادئ: فالقدوة الصالحة ليست قدوة موسمية تؤثر لبعض الوقت، أو في أماكن محدّدة، إنما هي ذات تأثير وجاذبية أينما حلّت وارتحلت قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾⁽²⁾.

فالثبات يعطي الانطباع عن الصدق والصبر، والتحدي والإيمان العميق بالمبادئ التي يحملها القدوة، بعكس التذبذب أو التردد، أو التراجع أو التساقط.

والشباب قد ينهار تحت الضغوطات لكتفه إذا تذكّر الثابتين الصامدين، المقاومين في عناد؛ خجل من نفسه، واتكأ على جراحه، وواصل المسير، وعدم الانقطاع عن عمل ما دون أي مبرر شرعي أو نسيان، وترجع خطورة هذا الانقطاع إلى أمرين؛ الأول: دخوله في دائرة الذين يقولون ما لا يفعلون، والثاني: إحساس المقتدي بعدم جدية ذلك الأمر وأهميته.

3- تعلم العلم: هذا العلم الذي يؤخذ من منابعه الصافية البعيدة عن غلو المغالين، وانتحال المبطلين، قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "تعلموا قبل أن تسودوا"، فالسيادة في الدعوة تحتاج إلى علم يتأكد فيه القدوة من صحة خطواته، ويصحح فيه خطوات الآخرين.

1- الفوائد: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ص 61.

2- سورة مريم الآية: 31.

وقد اتخذ بعض الناس أناساً جهلاء قدوة لهم ظناً منهم أنهم صالحون لكن ربما لا يكون لديهم فقه بمدخل الشيطان فينحرف عن منهج الله ورسوله فيضل ويضل.

وفي هذا المقام أنه المسلمون عامة والشباب خاصة إلى أخذ العلم وتعلمه على أيدي علماء درسوا علوم الشريعة من مظاهرها الحقيقية، بعيدين عن الغلو والتطرف، فاهمين لمقاصد الشريعة الإسلامية، لا على أيدي أناس متعلمين انتسبوا إلى العلم فيزعمون أنهم قد حازوا العلوم كلها، وأن غيرهم بضاعته مزجاء.

4 - الاعتراف بالخطأ والسعي لتصحيحه:

القدوة قدوتان: قدوة معصومة لا يتطرق الخطأ إلى أقوالها وأفعالها، كما هم الأنبياء - عليهم السلام - الذين يشبههم البعض بالشموس الساطعة التي كلها نور، ولأن المراد منها أن تنير عقول الناس وقلوبهم وحياتهم، فلا يصح أن يكون هناك شيء من الظلمة ولو قليلاً.

وهناك قدوة غير معصومة، قد يصدر عنها الخطأ لكنّها تسارع إلى معالجته وتفاديه، والاعتراف به، وعدم الإصرار عليه، أو تكراره مستقبلاً، وبذلك تكون قدوة حتى في صراحتها وشفافيتها، وفي سعيها إلى تصحيح ما تقع فيه من أخطاء.

والمتقون - وهم قدوة صالحة - يقعون في الخطأ أحياناً، لكنّ ميزتهم عن سواهم أن سواهم تأخذهم العزة بالإثم فيكابرون ويحاورون ولئلاً يقال عنهم إنهم أخطئوا، فيؤوبون المتقون إلى ربهم، ويثوبون سريعاً إلى رشدهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (1).

و"طائف الشيطان" هو الخواطر الخبيثة والوساوس الشريرة التي تخطر على بال الإنسان، لكنّه بما أوتي من قدرة إيمانية تصحيحية يعمل على طرد تلك الوسوس والخواطر، ليعود إلى سابق عهده ونقائه، كالنهر تتساقط بعض الشوائب لتلوته لكنّه سرعان ما يعود إلى صفائه من جديد.

ثانياً: أهمية القدوة الحسنة:

تعد القدوة الحسنة من الوسائل المهمة للداعي في تبليغ دعوته، وجذب الناس إلى الإسلام، وامتنال أوامره واجتناب نواهيه، بما يتحلى به من صفات طيبة وأفعال حميدة فيصبح أمودجاً طيباً يقرأ

1- سورة الأعراف الآية: 201.

فيه الناس معاني الإسلام فيقبلون عليها وينجذبون إليها، لأن التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثير بالكلام وحده.

إن الإسلام انتشر في كثير من بلاد الدنيا بالقدوة الطيبة للمسلمين التي كانت تبهر أنظار غير المسلمين وتحملهم على اعتناق الإسلام، فالقدوة الحسنة التي يحققها الداعي بسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام يستدل بها سليم الفطرة راجح العقل من غير المسلمين على أن الإسلام حق من عند الله.

وقد كان لهذه القدوة الأثر الأكبر في إبلاغ دعوة الإسلام، ودخول الكثير من الناس في الإسلام دون أن يسمعون من رسول الله خطباً ولا مواظ، ولكن دخلوا الإسلام بسبب عفو ورحمة النبي ﷺ، وهذا تطبيق عملي لأخلاق النبي ﷺ مع الناس عن سعيده بن أبي سعيد أنه سمع أبا هريرة يقول بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة. فربطوه بسارية من سوارى المسجد فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال « ماذا عندك يا ثمامة ». فقال عندي يا محمد خير إن تقتل تقتل ذا دم وإن نعيم نعيم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد العدي فقال « ما عندك يا ثمامة ». قال ما قلت لك إن نعيم نعيم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من العدي فقال « ماذا عندك يا ثمامة ». فقال عندي ما قلت لك إن نعيم نعيم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فقال رسول الله ﷺ « أطلقوا ثمامة ». فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلي والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فمأدا ترى فبشره رسول الله وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل أصبوت فقال لا ولكني أسلمت مع رسول الله - ﷺ - ولا والله لا يأتكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله - ﷺ - (1).

1- رواه مسلم في صحيحه، ك الجهاد والسير ب: ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه.

والقدوة الحسنة هي الخطوة الأولى للتمكين للفكر والدعوة والرسالة والخطبة، لأن دعوة الناس إلى الهدى فرع للاهتمام، وتقييم الإنسان عوج غيره ودعوته إلى الاستقامة فرع الاستقامة، ودعوة غيره إلى الصلاح ينبغي أن يكون أساسها في الصلاح، فمن لا يكن صالحاً في نفسه فكيف يصلح غيره، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج.

والداعية القدوة يقنع الناس بفعله قبل قوله، فلو دعاهم إلى المواظبة على صلاة الجماعة وهو أول من يسارع إليها لاقتدى الناس به، أما إذا كان ممن يجلسون في الطرقات والناس يصلون الجماعة ولا يحافظ عليها فإن كثيراً من الناس يتكونها قائلين هل نحن أفضل من هذا، وكأنهم يقولون له، كن أنت أول المواظبين عليها. أوعظ نفسك قبل أن تعظنا.

ويمكن تلخيص أهمية القدوة الحسنة فيما يلي:

1- " إن المثال الحي المرتقي في درجات الكمال يثير في نفس البصير العاقل تدبراً كبيراً أكبر من الامتحان والإعجاب والتقدير والمحبة، ومع هذه الأمور تتهيج في النفس دوافع الغيرة لديه، فإن كان عنه في الأصل ميل إلى الخير وتطلع إلى الكمال، وليس في نفسه عقبات تصده عن ذلك أخذ يحاول تقليد من استحسنه وأعجب به، بما تولد إليه من حوافز تحرضه لأن يعمل مثله، حتى يمثل درجة الكمال التي بدأ يحتلها.

2- إن القدوة الحسنة المتحلية بالفضائل الممتازة تعطي للآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة التي هي في متناول القدرات الإنسانية وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال.

3- إن مستويات الفهم للكلام عند الناس تتفاوت، ولكن الجميع يتساوى أمام الرؤية بالعين المجردة لمثال حي، فإن ذلك أيسر في إيصال المفاهيم والمعاني التي يريد الداعية المرابي إيصالها للمقتدي.

وأخلاق الخطيب نفسه تنتهي به إلى الإقناع حينما تكون الخطبة محضرة بشكل يبعث على الثقة ويملاً نفس الخطيب بالطمأنينة، وليس صحيحاً أن تصدق مقالة الذين كتبوا في الخطابة من أن أمانة الخطيب ونزاهته لا دخل لهما في الإقناع، فنحن نقرر على عكس ما يقولون إن للصفات الخلقية التي يمتاز بها الخطيب أكبر الأثر في قوة الإقناع⁽¹⁾.

وقدوة الخطيب الحسنة دليل على صدقه وقودته السيئة دليل على كذبه فيما يدعو إليه، فالخطيب " إذا أمر مثلاً بالصمت عما لا يعني فإن كان صادقاً عما لا يعني ففتواه صادقة وإن كان من

1- الخطابة. أرسطو. ج(1). ص 151.

الخائضين فيما لا يعني فهي غير صادقة وإذا ذلك على الزهد في الدنيا وهو زاهد فيها صدقت فتياه وإن كان راغباً في الدنيا فهي كاذبة فتياه وإلا فلا وعلى هذا الترتيب سائر أحكام الشريعة في الأوامر ومثلها النواهي⁽¹⁾.

وقدوة الخطيب الحسنة لها أثر في حسن التأثير، فالكلام والبراعة فيه صفة سهلة يجيدها الخيرون كما يجيدها المشعوذون والكاذبون على السواء، ويعرف سبيلها المخلصون والمنافقون جميعاً، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾⁽²⁾.

"ويلاحظ الباحث في سير الدعاة أنهم كانوا أكثر تأثيراً في الناس بسلوكهم وثبات أخلاقهم على كل الأحوال، وعين الجمهور فاحصة، ومنطق الأفعال أقوى في الإقناع، ثم إن العناصر الخيرة قليلة نادرة في سائر المجتمعات، فما يكاد العامة يرون نموذجاً جيداً حتى يسارعوا إلى الالتفاف والتعلق به"⁽³⁾.

ولعل هذا يفسر لنا سر التفاف الجماهير المسلمة حول الدعاة الصادقين المخلصين وانفضاض الناس وانصرافهم عن أولئك الدعاة الكاذبين، الذين يقولون ما لا يفعلون، والذين تأتي أفعالهم مكذبة لأقوالهم، فإذا دعا الخطيب القدوة إلى أمر سارع الناس في تنفيذه وإذا نهي عن أمر نأ الناس عنه؛ لأنهم وجدوا هذا الخطيب أمامهم نموذجاً عملياً للخير، والذي دعا الناس أن يصدقوا برسالة النبي -ﷺ- قولهم ما جربنا عليك كذباً قط، فلم يعترض عليه أحد ويقول له أنت خائن الأمانة أو أنت تسيء إلى الجوار، وأول من صدق النبي من النساء خديجة ماذا قالت له، لم تتن عليه بكلام فطري فيه مدح له؟ لا بل ذكرت أخلاقاً تحلي بها النبي -ﷺ- فقالت له: أبشر كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، و تصدق الحديث و تحمل الكل، و تعين على نوائب الدهر"⁽⁴⁾ فحال النبي هو الذي دعاها وغيرها أن يؤمنوا به من غير أن يسألوا هل هذا الدين حق أم لا؟

إن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان، وخلقه الفاضل هو السحر الذي يجذب إليه الأفتدة ويجمع عليه القلوب، أتظن أن جمال الباطن أضعف أثراً من وسامة الملامح!

1- الموافقات في أصول الفقه. إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، ج4ص252.

2- سورة البقرة:204.

3- كيف تعو الناس. عبد البديع صقر. ص 91.

4- أخرجه البخاري في صحيحه ك: بدء الوحي ب:3.

والخطيب الموفق هو الذي يهدي إلى الحق بعمله، وإن لم ينطق بكلمة، لأنه مثل حي متحرك للمبادئ التي يعتنقها⁽¹⁾.

المبحث الثاني: آثار القدوة الحسنة

إن من أهم الحلول التي وضعها الإسلام للرجوع إلى التدين المعتدل البعيد عن الإفراط والتفريط؛ القدوة الحسنة لأنها " أوسع مداخل الدعوة الإسلامية وأوفاهها بالعرض، أي أن يكون المسلم الوافد على أهل الكفر من أهل الدين المتين والخلق القويم وحسن معاملته للناس، ونظافته وحسن سمته، وتعاونه مع غيره تجبب الناس فيه وفي دينه، فلا يزالون في إعجاب به حتى تهوى أفئدتهم إلى ما يؤمن به ليكونوا مثله⁽²⁾.

وإن أي نظرية مهما تبلغ من الصحة ودقة الفكر، وإن تعليماً مهما يكن رائعاً ويقع من الناس موقع الإعجاب، وأن هداية مهما تجمع من صنوف الخير، كل ذلك لا يغني غناء، ولا يثمر ثمرة، ولا يبقى على الدهر إلا إذا كان له من يمثله بعمله، ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله ويعرفه إلى الناس بالقدوة والأسوة، فيقتدي الناس بدعائه عن طريق العمل بعد العلم معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة معظمين لأخلاقهم⁽³⁾.

ومن أهم آثار القدوة الحسنة ما يأتي:

1- ترغيب الناس في الإسلام:

من الوسائل المهمة في جذب الناس إلى الإسلام، السيرة الطيبة للمتدين وأفعاله الحميدة وصفاته العالية وأخلاقه الذاتية التي تجعله قدوة طيبة وأسوة حسنة لغيره، ويكون بها كالكتاب المفتوح يقرأ فيه الناس معاني الإسلام فيقبلون عليها وينجذبون إليها، لأن التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثير بالكلام فقط.

والملاحظ أن الإسلام انتشر في كثير من بلاد الدنيا بالسيرة الطيبة للمسلمين التي كانت تجلب أنظار غير المسلمين وتحملهم على اعتناق الإسلام، فالقدوة الحسنة التي يحققها القدوة بسيرته الطيبة

1- مع الله. دراسات في الدعوة. مُجَّد الغزالي ص 234.

2- الدعوة إلى الله على بصيرة / عبد النعيم مُجَّد حسنين، ص 171.

3- أساليب الدعوة التربوية في السنة النبوية / زياد محمود العاني / ص 329.

هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام يستدل بها غير المسلم على أحقية الإسلام ، وأنه من عند الله ، لا سيما إذا كان سليم الفطرة سليم العقل⁽¹⁾.

وكذلك ما تحلى به الفاتحون من سيرة طيبة ، وأخلاق حميدة ، وفضائل إسلامية عديدة جعلت منهم كتاباً مفتوحاً للإسلام ، وصفحة بيضاء نقية لما ينبغي أن يكون عليه المسلم الحق ، وما يحدثه الإسلام فيمن يعتنقه ويؤمن بعقيدته من آثار طيبة وفوائد عظيمة⁽²⁾.

فلم يلق الفاتحون المسلمون خطباً رنانة ، ولم يحاضروا محاضرات جمعة ، ولم يسطروا الكتب التي تشرح تعاليم الإسلام ؛ ليقنعوا غير المسلمين بالدخول في الإسلام ، ولكن تجسدت القدوة الحسنة فيهم ، فكانوا نماذج حية عبرت عن التدين الحق البعيد عن الإفراط أو التفريط.

ومن السوابق القديمة في أهمية السيرة الحسنة للمتدين وأثرها في تصديقه والإيمان بما يدعو إليه أن خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - عندما أخبرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما حدث له في غار حراء قالت له " أبشر والله لا يخزيك أبداً أنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر"⁽³⁾.

وروي أيضاً أن أعرابياً جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له: من أنت ؟ قال أنا مُحَمَّد بن عبد الله ؟ قال الأعرابي أنت الذي يقال عنك أنك كذاب ؟ فقال أنا الذي يزعمونني كذلك فقال الأعرابي: ليس هذا الوجه وجه كذاب ، وما الذي تدعو إليه ؟ فذكر له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يدعو إليه من أمور الإسلام فقال له الأعرابي أمنت بك وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن مُحَمَّد رسول الله⁽⁴⁾.

فالأعرابي استدل بسمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووجهه المنير الكريم ، وقدوته الحسنة الذي يكون عليها أهل التدين المعتدل ، والأخلاق الكريمة ، استدل بذلك على صدقه فيما يدعو إليه ، فلم يتردد في الدخول في الإسلام لما رأى من القدوة الحسنة التي تمثلت في شخص النبي - صلى الله عليه وسلم -.

والإسلام دين عالمي يدعو أتباعه إلى عقيدة سمحة ، وعبادة ميسرة ، ومعاملات وأحكام وأخلاق لا حرج فيها ولا مشقة ، ودعا الإسلام إلى التيسير وعدم التعسير وإلى الرفق وعدم الحرج ، فالرحمة جوهر رسالته ، والوسطية عنوان دعوته ، وهي تعني الاعتدال في الأمور كلها دون إفراط أو تفريط.

1- أصول الدعوة: عبدالكريم زيدان: ص 461.

2- وسائل الدعوة / عبد الرحيم بن مُحَمَّد المغزوي ص 207.

3- رواه البخاري في صحيحه، ك: بدء الوحي ب: 3.

4- أصول الدعوة: عبدالكريم زيدان: ص 462/461.

2- تحقيق التوازن والاعتدال:

إن الإنسان مكون من جسد وروح، فإذا غني الإنسان بجانب دون غيره حدث خلل في أحدهما، لكن إذا أعطى الإنسان لكل جانب حقه تحقق التوازن بين الجانبين ، والقدوة الحسنة هي التي تحقق هذا التوازن ، والشواهد علي ذلك كثيرة منها ما روي عن حنظلة الأسدي قال: قَالَ لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةَ قَالَ قُلْتُ نَافِقٌ حَنْظَلَةَ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- يُدَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّ رَأْيِي عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- عَافَسْنَا الْأَرْوَاحَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّيِّعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَاَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- قُلْتُ نَافِقٌ حَنْظَلَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَمَا ذَاكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُدَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّ رَأْيِي عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَرْوَاحَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّيِّعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةَ سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (1).

(عَافَسْنَا الْأَرْوَاحَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّيِّعَاتِ) قَالَ الْهَرَوِيُّ: مَعْنَاهُ حَاوَلْنَا ذَلِكَ وَمَارَسْنَاهُ وَاشْتَعَلْنَا بِهِ، أَي: عَاجَلْنَا مَعَايِشَنَا وَحُطُوظَنَا، وَالصَّيِّعَاتِ: هِيَ: مَعَاشِ الرَّجُلِ مِنْ مَالٍ أَوْ حِرْفَةٍ أَوْ صِنَاعَةٍ، وَرَوَى الْحَطَّابِيُّ هَذَا الْحَرْفَ (عَانَسْنَا) وَمَعْنَاهُ: لَاعَبْنَا، وَرَوَاهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ قَالَ: وَمَعْنَاهُ: عَانَسْنَا، وَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَعْرُوفُ، وَهُوَ أَعْمٌ. قَوْلُهُ: (نَافِقٌ حَنْظَلَةَ) مَعْنَاهُ: أَنَّهُ خَافَ أَنَّهُ مُنَافِقٌ، حَيْثُ كَانَ يَحْضُلُ لَهُ الْخَوْفُ فِي مَجْلِسِ النَّبِيِّ، وَيُظْهِرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ مَعَ الْمُرَاقَبَةِ وَالْفِكْرِ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى الْآخِرَةِ، فَإِذَا خَرَجَ اشْتَعَلَ بِالرَّوْجَةِ وَالْأَوْلَادَ وَمَعَاشِ الدُّنْيَا، وَأَصْلُ التَّفَاقِ إِطْهَارُ مَا يَكْتُمُ خِلَافَهُ مِنَ الشَّرِّ، فَخَافَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نِفَاقًا، فَأَعْلَمَهُمُ النَّبِيُّ أَنَّهُ لَيْسَ بِنِفَاقٍ، وَأَنَّهُمْ لَا يُكَلِّمُونَ الدَّوَامَ عَلَى ذَلِكَ، (سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ) أَي: سَاعَةٌ كَذَا وَسَاعَةٌ كَذَا. وَقَوْلُهُ: (فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَافِقٌ حَنْظَلَةَ: فَقَالَ: مَهْ ؟) قَالَ الْقَاضِي: مَعْنَاهُ الْإِسْتِفْهَامُ، أَي: مَا تَقُولُ، وَالْهَاءُ هُنَا هِيَ هَاءُ السَّكْتِ، قَالَ: وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا لِلْكَفِّ وَالرَّجْرِ وَالتَّعْظِيمِ لِذَلِكَ (2).

1- رواه مسلم في صحيحه ك التوبة: ب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا ح4937.

2- صحيح مسلم بشرح النووي: ج17 ص67/66.

ففي هذا الحادث صحح النبي -ﷺ- مفهوم التدين الحقيقي البعيد عن الإفراط التفریط، وأن الإنسان يحتاج إلي الترويح عن نفسه بما هو حلال، وهنا نتخيل أنه لو لم يلتق بمثله الأعلى النبي -ﷺ- لشدد علي نفسه وأتمها بالتقصير، وحرّم نفسه من ملاعبة الأهل والأولاد التي ترقق القلب، وتغرس الحنان والحب في قلب الأطفال والأهل.

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي -ﷺ- يسألون عن عبادة النبي -ﷺ- فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا أين نحن من النبي -ﷺ-؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فأني أصلي الليل أبداً وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء رسول الله -ﷺ- فقال " أنتم الذين قتلتم كذا وكذا؟ أما والله أتي لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلّي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني" (1).

(تقالوها) عدوها قليلة. (ذنبه) ذنبه -ﷺ- على حسب مقامه وما يعتبر ذنباً في حقه ليس هو من جنس الذنوب حقيقة ولو فعله غيره لا يسمى ذنباً. كفعله خلاف الأولى ونحو ذلك. (أبداً) دائماً دون انقطاع. (الدهر) أي أوصل الصيام يوماً بعد يوم. (لأخشاكم لله واتقاكم له) أكثركم خوفاً منه واشدكم تقوى. (أرقد) أنام. (رغب عن سنتي) مال عن طريقي وأعرض عنها. (فليس مني) أي ليس بمسلم إن كان ميله عنها كرها لها أو عن عدم اعتقاد بها. أن كان غير ذلك فإنه مخالف لطريقي السهلة السمحة التي لا تشدد فيها ولا عنت.

وَعَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- بَيْنَ سَلْمَانَ وَبَيْنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فَرَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً فَقَالَ مَا شَأْنُكِ مُتَبَدِّلَةً قَالَتْ إِنَّ أَخَاكَ أَبَا الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. قَالَ فَلَمَّا جَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ قَرَّبَ إِلَيْهِ طَعَامًا فَقَالَ كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ. قَالَ مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ. قَالَ فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لِيَقُومَ فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ تَمَّ. فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ لَهُ تَمَّ. فَنَامَ فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ قَالَ لَهُ سَلْمَانُ تَمَّ الْآنَ فَنَامَ فَصَلَّيَا فَقَالَ إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ

1- رواه البخاري في صحيحه، ك النكاح ب الترغيب في النكاح، ح 4776.

حَقًّا وَلِرَبِّكَ عَلَيْنِكَ حَقًّا وَلِضَيْفِكَ عَلَيْنِكَ حَقًّا وَإِنَّ لَأَهْلِكَ عَلَيْنِكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ -ﷺ- فَذَكَرْنَا ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: "صَدَقَ سَلْمَانُ"⁽¹⁾.

فدل هذا الحديث علي أن سلمان -ﷺ- جاء ذات يوم ودخل على دار أخيه أبي الدرداء -ﷺ-، فوجد امرأته متبذلة، يعني ليست عليها ثياب المرأة ذات الزوج، بل عليها ثياب ليست جميلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: إن أخاك أبا الدرداء ليس له شيء من الدنيا، يعني أنه معرض عن الدنيا، وعن الأهل، وعن الأكل، وعن كل شيء.

ثم إن أبا الدرداء لما جاء صنع لسلمان طعاماً، فقدمه إليه وقال: كل فلاني صائم، فقال له: كل وأفطر ولا تصم، لأنه علم من حاله بواسطة كلام زوجته أنه يصوم دائماً، وأنه معرض عن الدنيا وعن الأكل وغيره، فأكل ثم نام، فقام ليصلي، فقال له سلمان: نم، فنام، ثم قام ليصلي، فقال: نم ولما كان آخر الليل قام سلمان -ﷺ- وصليا جميعاً.

"فهذه ثمرة من ثمرات الأخوة الصادقة التي غرسها الرسول -ﷺ- في نفوس أصحابه، وهذه الأخوة عليها معول كبير في تقويم مسلك الغلو، إذ هي تنشيء التفاهم والثقة وهما عنصران ضروريان في العلاج، وكان علاج سلمان فيه حزم وحكمة: فأبي أن يأكل إلا إذا أكل معه أبو الدرداء، ولما أرخى الليل سدوله، سلك طريقة عملية متدرجة في علاج الجموح وضبطه، فأمره بالنوم في أوله، ثم قام معه في آخره وصليا جميعاً، وهكذا نجح العلاج عند توفر: الأخوة، والحزم، والحكمة ولين الطرف الآخر"⁽²⁾.

ولقد تعلم سلمان -ﷺ- هذا المنهج المعتدل من رسول الله -ﷺ- صاحب القدوة الحسنة، فأراد أن ينقله إلي أبي الدرداء -ﷺ- حتى يعطي لكل ذي حق حقه.

3- الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن سار علي نهجهم

إن جملة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - من أولهم إلى آخرهم كانوا قدوة حسنة لأقوامهم، وهذا يدل على عظم وأهمية القدوة الحسنة، ولهذا قال شعيب - عليه السلام - لقومه ﴿ وَمَا

1- رواه البخاري في صحيحه، ك الصيام، ب، من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له ح 1867.

2- ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث، لمحمد عبد الحكيم حامد. ص89.

أُرِيدُ أَنْ أُحَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَأَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١﴾.

وقد اقتدى الناس بالأنبياء والمرسلين، لأنهم كانوا صادقين مع الله ومع الناس، وثبتوا حتى النهاية، قال تعالى عنهم: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمَن دُرِّيْتَهُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَرَكْرَبًا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلًّا مِّن الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرُ بِهَا هُوَ لِأَن فَقَدَ وَكَلَّمْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِكَافِرِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدَاهُ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢﴾.

والفعل أبلغ من القول ثم إن مستويات الفهم للكلام عند الناس تتفاوت، ولكن الجميع يستوون أمام الرؤية بالعين المجردة، وذلك أيسر في إيصال المفاهيم التي يريد المتدين إيصالها للناس المقتدين به، وفي هذا أمثلة كثيرة أذكر منها:

عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ يُصَدِّقُ حَدِيثَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبُهُ قَالَا: حَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي بَضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَدِيِ الْخُلَيْفَةِ قَلَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْهُدَى وَأَشْعَرَ وَأَحْرَمَ بِالْعَمْرَةِ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ فِي نَزْوِلِهِ أَقْصَى الْحُدَيْبِيَّةِ ثُمَّ فِي حِجْيِ سَهْلِ بْنِ عَمْرٍو وَمَا قَاضَاهُ عَلَيْهِ حِينَ صَدَّوهُ عَنِ الْبَيْتِ قَالَ فَلَمَّا فَرَعَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - لِأَصْحَابِهِ: « قَوْمُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِفُوا ». قَالَ فَوَ اللَّهُ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا لَمْ يَثْمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ قَامَ فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْبَبْتُ ذَلِكَ الْخُرُجَ ثُمَّ لَأُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُذْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ

1- سورة هود الآية: 88.

2- سورة الأنعام الآيات: 83-90.

فَقَامَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحْرَ هَدْيِهِ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَخْلِقُ لِبَعْضٍ حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا عَمَّا⁽¹⁾.

ففي هذه القصة دلالة ظاهرة على التفاوت الكبير بين تأثير القول وتأثير الفعل؛ وأهمية القدوة، وعظيم مكانتها، ففي حين لم يتغلب القول على هموم الصحابة وتألمهم مما حدث؛ فلم ينصاعوا للأمر؛ نجدهم بادروا إلى التنفيذ؛ اقتداءً بالرسول ﷺ حين تحوّل أمره القولي إلى تطبيق عملي؛ حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً.

إن الناس كما ينظرون إلى المتدينين في أعمالهم وتصرفاتهم ينظرون إلى أسرهم، وإلى مدى تطبيقهم لما يقول، وهذا يفيد ويبين أن المتدين كما يجب عليه أن يكون قدوة في نفسه يجب عليه أن يقوم أهل بيته وأسرته ويلزمهم بما يأمر به الناس، ويدعوهم إليه، فعن عبيد الله بن عمر، قال: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ سَالِمًا، قَالَ: كَانَ عُمَرُ إِذَا نَهَى النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ جَمَعَ أَهْلَ بَيْتِهِ، فَقَالَ: إِنِّي نَهَيْتُ النَّاسَ عَنْ كَذَا وَكَذَا، وَإِنَّ النَّاسَ لَيَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الطَّيْرِ إِلَى اللَّحْمِ، وَإِمْ اللَّهُ لَا أَحَدٌ أَحَدًا مِنْكُمْ فَعَلَهُ إِلَّا أَضَعَفْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ ضِعْفَيْنِ⁽²⁾.

فلا بد من القدوة في البيت، وفي الطريق، وفي العمل، وفي جميع شئون الحياة؛ لأن كل هذا من التدين الذي أمر الله عز وجل به، حتى تؤتي القدوة أكلها، وتينع ثمارها، فالكلام إذا خرج من القلب دخل في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.

والنفس الإنسانية ميّالة بطبعها إلى الإنسان الصادق مع نفسه ومع الآخرين، والذي يتصرف بنقاء شبيه بنقاء الماء والشعاع والعطر، وهذا هو السبب الذي يجعل بعض الناس يؤثر فيك من غير أن يتكلم معك، فسلكه وحده قدوة، وهو نفسه الذي يجعل بعض الصالحين يقول: «كونوا دعاةً للناس بغير ألسنتكم، حتى يروا منكم الصدق والصلاح والورع، فذلك داعية»، وقد ثبت تربوياً أنّ (التربية غير المباشرة) العملية أكثر تأثيراً من (التربية غير المباشرة).

1- رواه البخاري في صحيحه ك: الشروط ب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب. ح 2731.

2- مصنف ابن أبي شيبة (ج 11 / ص 125) (31285).

المبحث الثالث: آثار القدوة السيئة

كما أن القدوة الحسنة لها فوائد إيجابية فكذلك القدوة السيئة لها عواقب وخيمة ، ومن أهمها ما يأتي:

1- تحريم الطيبات:

إن الذي ادعى التدين وهو بعيد عنه ، وكان قدوة سيئة لغيره ، يحرم بعض ما أحله الله تعالى ، ظناً منه أن هذا يفسد عليه تدينه ، وقد أنكر القرآن ، بل شدد النكير ، على أصحاب هذه النزعة في تحريم الطيبات والزينة التي أخرج الله لعباده ، فقال تعالى في القرآن المكي: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

وفي القرآن المدني يخاطب الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (2) .

وهاتان الآيتان الكريمتان تبيينان للجماعة المؤمنة حقيقة منهج الإسلام في التمتع بالطيبات، ومقاومة الغلو الذي وجد في بعض الأديان، " فقد روي في سبب النزول أن رهطاً من الصحابة قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كالرهبان! وروى أن رجلاً أرادوا أن يتبتلوا أو يخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح (ملابس الرهبان) فنزلت ..

وجاء عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء، وإني حرمت علي اللحم. فنزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحْرِمُوا ﴾ (3) .

1- سورة الأعراف: آيتا: 31/32.

2- سورة المائدة: الآيتان: 88، 87.

3- لباب النقول في أسباب النزول: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، ص 86.

2- كراهية الناس ونفورهم من المنتطح أو المغالي في الدين:

إن صاحب القدوة السيئة والمتدين المغالي أو المفرط منفر لا تحتمله طبيعة البشر العادية، ولا تصبر علي، ولو صبر عليه قليل منهم لم يصبر عليه جمهورهم؛ لأنه واقف في الطرف بعيداً عن الوسط والاعتدال، فكراً وسلوكاً، وحينئذ يكون النفور، وتكون الكراهية⁽¹⁾؛ لأن الشرائع إنما تخاطب الناس كافة، لا فئة ذات مستوى خاص.

ولعل هذا الأثر هو ما أشار إليه النبي ﷺ في حديث عن أبي مسعودٍ قَالَ قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْفَجْرِ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فَلَانَ فِيهَا. فَقَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا رَأَيْتُهُ غَضِبَ فِي مَوْضِعٍ كَانَ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ ثُمَّ قَالَ " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنْفِرِينَ، فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ خَلْقَهُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ " (2).

ولهذا غضب النبي ﷺ على صاحبه الجليل " معاذ " حين صلى بالناس فأطال حتى شكاه أحدهم إلى النبي ﷺ فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: أقبل رجل بنا ضحين وقد جنح الليل فوافق معاذاً يصلي فترك ناضحه وأقبل إلى معاذ فقرأ بسورة البقرة أو النساء فانطلق الرجل وبلغه أن معاذاً نال منه فأتى النبي ﷺ فشكا إليه معاذاً فقال النبي ﷺ: (يا معاذ أفتان أنت). أو (فأتان) ثلاث مرات (فلولا صليت بسبح اسم ربك والشمس وضحاها والليل إذا يغشى فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة) فقال له: أفتان أنت يا معاذ؟! وكرها ثلاثاً⁽³⁾؛ لأن التشدد وتنفير المسلمين من الصلاة ليس من الإسلام في شيء؛ لأنه علي خلاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ولهذا لما بعث النبي ﷺ معاذاً وأبا موسى إلى اليمن أوصاهما بقوله في الحديث الذي روي عن سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ « يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَبَسِّرَا وَلَا تُنْقِرَا وَتَطَاوَعَا وَلَا تَحْتَلِمَا » (4).

3- أنه قصير العمر، والاستمرار عليه في العادة غير متيسر، فالإنسان ملول، وطاقته محدودة، فإن صبر يوماً على التشدد والتعسير، فسرعان ما تكل دابته أو تحرن عليه مطيته في السير. وأعني بهما

1- أفات علي الطريق: السيد محمد نوح، ج 3 ص 147.

2- رواه مسلم في صحيحه ك الصلاة ب من شكاً إمامه إذا طول. ح 704.

3- رواه البخاري في صحيحه ك - الجماعة والإمامة ب: من شكاً إمامه إذا طول ح 673.

4- رواه مسلم في صحيحه ك: الجهاد والسير ب في الأمر بالتيسير وترك التنفير. ح 4623.

جهده البدني والنفسي، فيسأم ويدع العمل حتى القليل منه ، أو يأخذ طريقاً آخر، على عكس الطريق الذي كان عليه أي ينتقل من الإفراط إلى التفريط، ومن التشدد إلى التسبب، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وكثيراً ما رأيت أناساً عرفوا بالتشدد والتطرف حيناً، ليس له حديث إلا في وجوب إطلاق اللحية والسواك، وتقصير الثياب ، وان هذا بدعه وهذا سنة ، وهذا مسجد نصلي فيه ، وذاك مسجد فيه قبر لا تصح الصلاة فيه ، وهذا عالم رباني ، وغيره عالم سلطة ، وحرم علي نفسه وأهل بيته كثيراً مما أحل الله تعالى ، كل هذا بعد إطلاقه للحيته مباشرة ، وتكلمت مع أحدهم فلم يقتنع بما أقول ، ثم رأيت بعد ذلك لا يدخل المسجد إلا في بعض الأوقات بعد أن كان من المواظبين علي الصلوات في جماعة قبل اعتناقه لهذا الفكر المنحرف وساروا في خط آخر، وانقلب على عقبيه، وجلس مع العصاة والعياذ بالله.

4- التقصير في حقوق الآخرين:

إن صاحب القدوة السيئة المغالي أو المفرط لا يخلو من جور على حقوق أخرى يجب أن تُرعى، وواجبات يجب أن تؤدى.. وما أصدق ما قاله أحد الحكماء: ما رأيت إسرافاً إلاً وبجانبه حق مضيع وقال -ﷺ- لعبد الله بن عمرو حين بلغه انهماكه في العبادة انهماكا أنساه حق أهله عليه: ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال عبد الله: فقلت بلى يا رسول الله.. فقال -ﷺ-: لا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم. فإن لجسدك عليك حقاً.. وإن لعينيك عليك حقاً.. وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك (زوّارك) عليك حقاً.⁽¹⁾

ومعناها: فأعط كل ذي حق حقه، ولا تغلّ في ناحية على حساب أخرى؛ لأن الجسد له حق، والروح لها حق، والأولاد لهم حق، والزوجة لها حق، والجيران لهم حق، فإذا غالى في جانب ضيع الجوانب كلها؛ لأنه يدور في فلك معين من الفكر والسلوك الأمر الذي ينتهي به إلى التقصير في حقوق يجب أن تراعى، وواجبات ينبغي أن تؤدى.

5 - الفتور أو الانقطاع:

إن صاحب القدوة السيئة، والمتدين المغالي أو المفرط قصير العمر، والاستمرار عليه في العادة غير متيسر إذ الإنسان ملول، وطاقته محدودة، فإن صبر يوماً عليه فسرعان ما تكل دابته، أو تحرن عليه

1- رواه البخاري في صحيحه ك: النكاح ب: لزوجك عليك حقا ح 4903.

مطيبته، في السير، ونعني بها جهده البدني والنفسي فيسأم، ويدع العمل حتى القليل منه أو يأخذ طريقاً آخر، على عكس الطريق الذي كان عليه، أي ينتقل من الإفراط إلى التفريط، ومن التشدد إلى التسبب. ولعل هذا هو ما أشار إليه النبي -ﷺ- بقوله: "اكلفوا من الأعمال ما تطبقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب العمل إلى الله أدومه، وإن قل" (1).

وعن ابن عباس: قال: كانت مولاة للنبي -ﷺ- تصوم النهار، وتقوم الليل، فقيل له: إنما تصوم النهار، وتقوم الليل فقال -ﷺ-: "إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى" (2).

6- تضييع العمر، وتبديد الجهد في غير ما طائل ولا فائدة:

إن جهد المتنوع أو المغالي إنما هو مصروف إلى ثانويات الأمور فكرياً أو سلوكياً، دون أصولها، وهو بهذا يضيع عمره، ويبدد جهده في غير ما طائل ولا فائدة، وصدق الله الذي يقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (3).

ويفسر الحافظ ابن كثير هذه الآية، فيسوق طائفة من الأخبار عن السلف حول معناها قائلاً: عن مصعب، قال: سألت أبي -يعني: سعد بن أبي وقاص- عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أهم الحرورية؟ قال: لا، هم: اليهود، والنصارى، أما اليهود، فكذبوا محمدًا -ﷺ- وأما النصارى، فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها، ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد -رضي الله عنه- يسميهم الفاسقين، وقال علي بن أبي طالب، والضحاك، وغير واحد هم الحرورية (4).

ثم بيدي رأيه فيها بعد ذلك، فيقول: "ومعنى هذا عن علي -رضي الله عنه- أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية، كما تشمل اليهود، والنصارى، وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج

1- رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الصلاة: باب الاقتصاد في العمل والدوام عليه 258/2، 259 من حديث ابن عباس مرفوعاً بهذا اللفظ وعزاه إلى البزار قائلاً: (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح).

2- رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الصلاة: باب الاقتصاد في العمل والدوام عليه 258/2، 259.

3 - سورة الكهف الآية: 104.

4 - تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير 107/3.

بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية، يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخفي، وعمله مردود⁽¹⁾.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنت أصوم الدهر وقرأ القرآن كل ليلة قال فيما ذكرت للنبي ﷺ وإما أرسل إلي فأتيته فقال لي ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟ فقلت بلى يا نبي الله ولم أرد بذلك إلا الخير قال فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال فإن لزوجك عليك حقا وإن لزورك عليك حقا ولجسدك عليك حقا فصم صوم داود نبي الله ﷺ فإنه كان أعبد الناس قال قلت يا نبي الله وما صوم داود؟ قال كان يصوم يوما ويفطر يوما قال وقرأ القرآن في كل شهر قال قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال فاقراءة في كل عشرين قال قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال فاقراه في كل عشر قال قلت يا نبي الله إني أطيق أكثر من ذلك قال: فاقراه في كل سبع ولا ترد على ذلك فإن لزوجك عليك حقا ولزورك عليك حقا ولجسدك عليك حقا قال فشددت فشدد علي، وقال لي إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر قال فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ⁽²⁾.

7- القلق والاضطراب النفسي:

وذلك أن المنتطح أو المغالي إنما يريد حمل الآخرين على ما يوافق هواه وما يريد، وما الآخرون بمستجيبين له، ولا بموافقيه فيما يهوى، وفيما يريد، وتكون العاقبة حينئذ القلق، والاضطراب النفسي، بل العدوان على الآخرين، حيث لم تتحقق رغبته، ولم تحب طلبته. وإن الواقع المعاش ليشهد بذلك، حتى إننا لنرى المنتطحين أو المغالين أضيق الناس صدرًا، وأشدهم قلقًا واضطرابًا، وأكثرهم فورانًا وغضبًا، بل ربما استخدموا للقوة، لحمل الآخرين على ما يريدون⁽³⁾.

1 - السابق 107/3.

2- رواه مسلم في صحيحه ك الصيام: ب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العبدین والتشريق وبينان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم، ح 1962.

3- أفات علي الطريق: السيد محمد نوح ج3 ص 150.

8- هلاك الأمم والشعوب:

ذلك أن صاحب القدوة السيئة يأخذ بيد غيره الي الهلاك والعياذ بالله؛ لأنه إما مغالٍ في تدينه ، وإما مفرط في حق الله وحق نفسه ، وهذا ما حدث في حق بني إسرائيل عندما غالوا في حق سيدنا عيسى عليه السلام ، ورفعوه فوق مرتبة البشرية إلي مرتبة الإلوهية ، فحكم الله عليهم بالكفر قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾⁽¹⁾.

ولقد سجل القرآن الكريم نموذجاً للقدوة السيئة المتمثلة في فرعون اللعين الذي قال أنا ربكم الأعلى، ومن علي شاكلته، فجعله الله تعالى عبرة لكل من تسول له نفسه أن يفعل ذلك. قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. أَلَا إِنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَعَافُونَ﴾⁽²⁾.

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ. يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ. وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾⁽³⁾.

9- الفرقة والتمزق:

ذلك أن المغالين أو المنتطعين؛ لقصور الفهم لديهم، لا يلتقون على رأي واحد، ولا يقبلون للآخرين رأياً، وحينئذ تكون الفرقة والتمزق، الذي ذمه الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁴⁾.

ولعل ذلك هو ما أشار إليه" ابن عباس- رضي الله عنهما- إذ خلا عمر- رضي الله عنه - ذات يوم، فجعل يحدث نفسه، كيف تختلف هذه الأمة، ونبينا واحداً؟ فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: كيف تختلف هذه الأمة، ونبينا واحداً، وقبلتها واحدة، وكتابتها واحد؟ فقال ابن عباس: يا أمير

1- سورة المائدة الآية: 72.

2- سورة يونس الآيات: 92/90.

3- سورة هود، الآيات، 96-99.

4- سورة آل عمران الآية: 105.

المؤمنين، إنما أنزل علينا القرآن، فقرأناه وعلمنا فيما أنزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن، ولا يدرون فيما نزل، فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان كذلك اختلفوا. وفي رواية: فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اختلفوا. فزجره عمر، وانتهره علي. فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه وقال: أعد علي ما قلت، فأعاد عليه، فعرف قوله: وأعجبه⁽¹⁾.

10- تشويه معالم الدين:

إن التفريط في الدين والتقصير في أحكامه يشوه الدين الحق الذي أنزله تعالى نوراً وضياءً ساطعاً، ومصباحاً منيراً، ليرشد الناس إلى الحق ويؤمن لهم السعادة ويحقق لهم مصالحهم الكاملة؛ لأن الشريعة الغراء تحقق هذه الأهداف بمجموع أحكامها، ولذلك يجب أن تؤخذ كاملة، رجاء الانتفاع بها، والحصول على ثمراتها ومقاصدها وفوائدها.

أما تطبيق بعض أحكام الشرع الحنيف، والتقصير في بعض الآخر، فإنه يشوه الرسالة السماوية الخالدة ويبدد معالمها، ويطمس محاسنها ويسئ إليها، ويفقد روتقها، ويضيع حكمتها وثمراتها؛ لأن الأحكام متكاملة، والشريعة كل لا يتجزأ ويصل عند التفريط في بعض الجوانب إلى عكس النتائج تماماً، مما ينفر الناس منهم ومن تدينهم، ويعتبرونهم وصمة عار للدين والتدين، ويؤخذ حجة على فساد الدين، أو قلة جدواه وعدم أهميته⁽²⁾.

وبعد فهذه لبنة من لبنات الحلول التي وضعها الإسلام للعودة إلى التدين المعتدل الذي أمر الله عز وجل به، ليسعد الناس في الدنيا والآخرة، سائلاً المولى تعالى أن يتقبلها مني، وتحظى بالرضا، فإن كان فيها من زلل فليغفر لي القارئ فإنما أنا بشر أصيب وأخطئ، وهذا جهد المقل والكمال لله وحده.

1 - الاعتصام: أبو إسحاق الشاطبي، ص 183.

2 - الاعتدال في التدين فكراً وسلوكاً ومنهجاً / محمد الزحيلي ص 110 / 111 باختصار.

النتائج:

- 1- أهمية القدوة الحسنة في معرفة التدين المعتدل؛ لأنها تستقى تدينها من القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة، البعيدة عن الإفراط والتفريط.
- 2- دوام النظر في التاريخ البشري بعامة، والإسلامي بخاصة، فإن هذا التاريخ حافل بالنماذج الحية من أهل الإفراط والتفريط في الدين والآثار السيئة التي جناها هؤلاء من وراء ذلك، وهي حافلة كذلك بكيفية التعامل مع هذه الظاهرة والقضاء عليها.
- 3- فائدة القدوة أنها تبرهن عملياً على نجاح القيم والمثل والسجايا التي يعملها ويدعو إليها؛ لأن النفوس جبلت على التقليد وهي رغبة ملحة تدفع الطفل والضعيف إلى محاكاة سلوك الرجل والقوى، كما تدفع غريزة الانقياد في القطيع جميع أفرادها إلى أتباع قائده واقتفاء أثره.
- 4- أهمية القدوة الحسنة في نشر الإسلام علي مر عصوره المختلفة، وخاصة بين غير المسلمين وهذا ما تحلى به الفاتحون من سيرة طيبة، وأخلاق حميدة، وفضائل إسلامية عديدة جعلت منهم كتاباً مفتوحاً للإسلام، وصفحة بيضاء نقية لما ينبغي أن يكون عليه المسلم الحق، وما يحدثه الإسلام فيمن يعتنقه ويؤمن بعقيدته من آثار طيبة وفوائد عظيمة.
- 5- أثر القدوة السيئة في تنفير الناس من الإسلام، والدخول فيه، لأن النفوس جبلت على حب أصحاب الأخلاق الحسنة، والتنفير من ذوي الأخلاق السيئة.

التوصيات:

- 1- أوصى القائمين على أمر الدعوة في البلاد الإسلامية ألا ترسل إلى البلاد الغربية إلا الداعية القدوة الذي يؤثر في الناس بعمله قبل قوله، حتى يكون لتدينه ودعوته أثراً بين الناس.
- 2- فتح باب الحوار للشباب المغالى في تدينه مع العلماء العاملين المعتدلين حتى يوضحوا هؤلاء الناس المفاهيم الصحيحة للإسلام حتى لا يغرق هؤلاء الناس في الغلو الذي يهوى بهم إلى الضلال.
- 3- عقد دورات تدريبية علمية للدعاة الجدد تحت إشراف علماء عاملين؛ لتبصيرهم بالتدين المعتدل البعيد عن الإفراط والتفريط، حتى ويوضحوا للمدعويين خطر الإفراط والتفريط.
- 4- الحيلولة دون نشر الأفكار الدخيلة على الإسلام ممن يحملها بعض الشباب الذي لم يفقه من دين الله عز وجل إلا القليل، وسط المسلمين حتى لا يحدث اضطراب وسط المجتمع المسلم.

- 5- تفعيل دور الإعلام في بلاد المسلمين بتوعية وتبصير المسلمين بالتدين المعتدل وخاتمته الطيبة، وتحذير الناس من الإفراط والتفريط حتى لا يهوى بهم في الهاوية.
- 6- مراقبة دور النشر والمكتبات التي تنشر الفكر المغالي لأناس محسوبين على الإسلام، حتى لا يتسرب إلى الشباب المسلم، فيتأثر به، ويحملة إلى غيره.
- 7- تشجيع العلماء العاملين، والدعاة المجاهدين، على أداء دورهم، والقيام بواجبهم نحو الإسلام، والمسلمين بعامة، والمعروفين بالتنطع أو الغلو، وذلك برفع سوط الملاحقة، والمتابعة من فوق ظهور هؤلاء ومنهج حرية التعبير عما تفرضه عليهم الأمانة التي كلفهم الله- عز وجل - بها، وحملهم إياها، فإن ذلك له دور كبير في القضاء على الإفراط أو التفريط.
- 8- أوصي المسلمين عامة والشباب خاصة بأخذ العلم وتعلمه علي أيدي علماء درسوا علوم الشريعة من مظانها الحقيقية، بعيدين عن الغلو والتطرف، فاهمين لمقاصد الشريعة الإسلامية، لا علي أيدي أناس متعلمين انتسبوا إلي العلم فيزعمون أنهم قد حازوا العلوم كلها، وان غيرهم بضاعته مزجها.

المقترحات:

- 1- فتح مزيدٍ من المراكز الإسلامية بين غير المسلمين من بلاد الغرب على أن تتولى الإشراف عليها من الناحية العلمية خاصة، حتى لا يتسرب إليها المغالون في دين الله -عز وجل-.
- 2- الإكثار من فتح فروع للجامعات الإسلامية التي تنشر التدين المعتدل البعيد عن الإفراط والتفريط، وفتح فروع كثيرة في البلاد الإسلامية الفقيرة، كما فعلت بعض البلاد الإسلامية.
- 3- تخصيص برامج مكثفة في الإعلام عن وسطية الإسلام، والاعتدال في التدين، يقدمها أهل الاختصاص من العلماء العاملين.
- 4- تشكيل لجان من العلماء والخبراء الشرعيين والنفسانيين والاجتماعيين والاقتصاديين والإعلاميين والأمنيين لمعالجة ظاهرة الإفراط والتفريط في المجتمع الإسلامي، حتى يتم القضاء علي هذه الآفة الخطيرة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم / رواية حفص عن عاصم.
- 1- الإسلام دين القدوة / حسن إسماعيل مروة / جمعية الدعوة الإسلامية / ط 1 / 1411 / 1991م.
 - 2 - أساليب الدعوة التربوية في السنة النبوية / زياد محمود العاني - دار عمار / عمان - الأردن ط 1 / 1420 / 2000م.
 - 3 - أصول الدعوة: عبد لكريم زيدان: مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - ط1/2005/1425هـ.
 - 4 - الاعتدال في التدين فكراً وسلوكاً ومنهجاً / مُجَّد الزحيلي - دار اليمامة للطباعة والنشر - دمشق بيروت ط 413 / 1992م.
 - 5- الاعتصام: أبو إسحاق الشاطبي: المكتبة التجارية الكبرى - مصر. دون رقم طبعة.
 - 6- أفات علي الطريق: السيد مُجَّد نوح دار اليقين - مصر ط1-1418هـ 1998م
 - 7- تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: تحقيق سامي بن مُجَّد سلام الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999م.
 - 8- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، دار الكتب الإسلامية.. دون رقم طبعة.
 - 9- الدعوة إلى الله على بصيرة / عبد النعيم مُجَّد حسنين - دار الكتاب المصري - القاهرة - ط 1 / 1405 / 1984
 - 10- الرسالة المحمدية - سليمان الندوي. دون رقم طبعة.
 - 11- سنن الترمذي: مُجَّد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي: دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق: أحمد مُجَّد شاکر وآخرون. دون رقم طبعة.
 - 12- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ط: دار نهضة مصر، ط الأولى، دون تاريخ.
 - 13- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف: يوسف القرضاوي - دار الوفاء المنصورة.
 - 14- صحيح البخاري: مُجَّد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت ط الثالثة، 1407 - 1987 تحقيق: مصطفى ديب البغا.

- 15- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق: مُجَّد فؤاد عبد الباقي. دون رقم طبعة.
- 16- صحيح مسلم بشرح النووي ط - دار الكتب العلمية بيروت لبنان. دون رقم طبعة.
- 17- ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث، لمحمد عبد الحكيم حامد، دار المنار الحديثة ط 1/ 1411هـ/1991م.
- 18- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ط دار الفكر، بيروت، 1412 هـ، 1992م. دون رقم طبعة.
- 19- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد بن مُجَّد بن علي المقرئ الفيومي: المكتبة العلمية - بيروت. دون رقم طبعة.
- 20- مُصنّف ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن مُجَّد بن أبي شيبة، تحقيق: مُجَّد عوامة.
- 21- المسند للإمام أحمد بن حنبل.
- 22- لباب النقول في أسباب النزول: عبد الرحمن بن أبي بكر بن مُجَّد السيوطي أبو الفضل: دار إحياء العلوم - بيروت. دون رقم طبعة.
- 23 - مع الله. دراسات في الدعوة. مُجَّد الغزالي. دار نهضة مصر ط(2) 2000.
- 24- وسائل الدعوة / عبد الرحيم بن مُجَّد المغزوي دار أشبيليا - السعودية ط 2000/1420/1 م.